وقفة مع الناقدين للغزالى

كان أبو حامد الغزالى س(ت ٥٠٥هـ) عند جمهور المتقدمين، حجة الإسلام، ومجدد المائة الخامسة، ومحيى علوم الدين، وقد أشرنا فيما سبق إلى كلام كثير منهم كعبد الغافر الفارسى، والأسنوى والسبكى وابنه، وابن كثير، وابن العماد الحنبلى، وغيرهم من المعجبين به، والمثنين عليه، والمقتفين لخطاه.

● **الناقدون للغزالى من المتقدمين:**

ولكن الغزالى – كغيره من عظماء التاريخ، وقادة الفكر – لا بد أن يختلف الناس فى تقويمه، ما بين مادح وقادح، سنة الله فى خلقه، فلا عجب أن نجد بجوار هؤلاء جماعة آخرين انتقدوه – كل فى مجاله – فأنكروا عليه بعض ما كتب من مصنفات ورسائل، أو بعض ما تبناه من أفكار ومفاهيم وقيم، أو بعض ما اختاره من طريقة فى الزهد والسلوك، أو بعض أساليبه فى النقد والمعارضة.. إلى غير ذلك، على تفاوت بينهم فى درجة الإنكار، وقوة المعارضة، وقسوة الهجوم.

● **نقد الطرطوشي**[1]:

من هؤلاء العلامة أبو بكر الطرطوشي المالكي (ت ٥٢٠هـ)، الذى اتهم الغزالى بأنه هجر العلم إلى العمل، ودخل فى علوم الخواطر وأرباب القلوب، ووساوس الشيطان! ثم شابها بآراء الفلاسفة، ورموز الحلاج، وجعل يطعن على الفقهاء والمتكلمين، حتى قال عنه: إنه غير أنيس بعلوم الصوفية ولا خبير بها!!

هذا ما نقله عنه العلامة تاج الدين ابن السبكى فى كتابه الشهير (طبقات الشافعية)، فى ترجمته للغزالى.

وقد رد عليه ابن السبكى بأن هذه دعاوى عارية عن الدلالة، قال: وما أدرى كيف استجاز فى دينه أن ينسب هذا الحبر إلى أنه دخل فى وسوسة الشيطان؟!

كما رد ابن السبكى على دعوى شوبه علوم الصوفية بآراء الفلاسفة بأنه لم يصنف (الإحياء) إلا بعدما ازدرى علومهم، وحذر من كتبهم، وليس فى الكتاب للفلسفة

---

(١) الطرطوشي هو: محمد بن محمد، أبو بكر الطرطوشي من أهل طرطوشة بشرق الأندلس، من فقهاء المالكية الحفاظ، ولد سنة ٤٥١هـ وتوفى سنة ٥٢٠هـ وله مؤلفات جليلة، منها «سراج الملوك» و«التعليقة» فى الخلافيات. انظر: الأعلام للزركلى (٧/ ٣٥٩).

مدخل.. والرجل ينادى على كافتهم بالكفر. وأنكر أن يكون فى الكتاب رموز غير إشارات القوم التى لا ينكرها عارف! قال: وليس للحلاج رموز يعرف بها، وأما دعواه أنه غير أنيس بعلوم الصوفية، فمن الكلام البارد، فإنه لا يرتاب ذو نظر بأن الغزالى كان ذا قدم راسخ فى التصوف.

● **نقد المازرى:**

وبعد الطرطوشى الإمام أبو عبد الله المازرى المالكى (ت٥٣٦هـ) الذى أنكر على الغزالى فى (الإحياء) الاستناد إلى الأحاديث الواهية، وأنه يستحسن أشياء مبناها على ما لا حقيقة له، كما أنكر قوله: من مات بعد بلوغه ولم يعلم أن البارئ قديم مات مسلمًا إجماعًا.. أنكر القول، وأنكر نقل الإجماع فيه.

وأنكر بشدة على الغزالى دعواه أن فى علومه ما لا يسوغ أن يودع فى كتاب، قال: إن كان حقًا فلم لا يودع فى الكتب؟ ألغموضه ودقته؟.. فما المانع أن يفهمه عليه؟.. وذكر أنه قرأ (الفلسفة) قبل استبحاره فى علم أصول الدين (الكلام) فأكسبته الفلسفة جرأة على المعانى، وسهولة الهجوم على الحقائق.

ورد ابن السبكى على المازرى، وبين علة ذلك، وهى تعصبه فى الكلام للأشعرى، وفى الفقه لمالك، والغزالى – كشيخه إمام الحرمين – ربما خالفا الشيخ الأشعرى فى مسائل من علم الكلام والمغاربة يستصعبون ذلك، حتى قال المازرى فى مسألة خالف فيها إمام الحرمين أبا الحسن الأشعرى، وليست من المسائل المهمة: «من خطّأ شيخ السنة أبا الحسن الأشعرى فهو المخطّأ»!

وربما ضعفا مذهب مالك فى كثير من المسائل، كما فعلا فى مسألة المصالح المرسلة.

هذا إلى اختلاف الطرق والأذواق، فطريقة المازرى الجمود على ظاهر العبارات، والوقوف معها، والغزالى يتعمق فى الحقائق، ويميل إلى إشارات القوم (يعنى الصوفية)، واختلاف الطريقين يوجب تباين المزاجين، وبعد ما بين القلبين، لا سيما قد انضم إليه المخالفة فى المذهب.

ثم رد ابن السبكى على المازرى انتقاداته على الغزالى، فبين من الناحية التاريخية أن الغزالى لم ينظر فى الفلسفة إلا بعد ما استبحر فى علم الكلام، كما ذكر ذلك فى (المنقذ).

وأما دعوى الجرأة على المعانى، فليست له جرأة إلا حيث دله الشرع، ويدعى خلاف ذلك من لا يعرف الغزالى.

وأما ما عاب به (الإحياء) من توهية بعض الأحاديث. فالغزالى معروف بأنه لم تكن له فى الحديث يد باسطة.

وعامة ما فى (الإحياء) من الأخبار والآثار مبدَّد فى كتب من سبقه من الصوفية والفقهاء.

وأما الأحاديث الموضوعة فى كتابه، فليس هو الذى وضعها، حتى ينكر عليه!

وأما مسألة من مات ولم يعلم (قِدَم البارى) ففرق بين عدم الاعتقاد بالقدم واعتقاد أن لا قدم، والثانى هو الذى أجمعوا على تكفيره.

وكلام الغزالى فى (المسلم الساذج) المؤمن بالله على الجملة، فهو الذى ادعى الغزالى الإجماع على أنه مؤمن ناج، من حيث مطلقُ الإيمان الجملى.

وأما ما أشار إليه الغزالى من العلم الذى لا يودع فى كتاب، فهو يدافع عنه بشدة بأن للعلوم دقائق نهى العلماء عن الإفصاح بها، خشية على ضعفاء الخلق، وأموراً أخر لا تحيط بها العبارات.

واستدل بما روى البخارى فى صحيحه من قول على كرم الله وجهه: حدثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يكذب الله ورسوله؟!

نقل عن الشافعي: أنه كان يذهب إلى أن القاضي يقضي بعلمه، وكان لا يبوح به مخافة قضاة السوء[1].

ولا شك أن بعض دفاع ابن السبكي قابل للمناقشة والرد.

● **نقد ابن الصلاح:**

ومن منتقدي الغزالي: الحافظ تقي الدين ابن الصلاح، بسبب إدخاله (المنطق) في علم (أصول الفقه) وقوله في أول (المستصفى): «هذه مقدمة العلوم كلها، ومن لا يحيط بها فلا ثقة بعلومه أصلاً» فقد اعترض ابن الصلاح على الغزالي في ذلك بأن الصحابة وسلف الأمة لم يعرفوا المنطق، وعنهم أخذ علم الدين.

وقد رد الإمام التقي السبكي على ابن الصلاح، كما نقله عنه ابنه في (الطبقات) وبين ما جد من الحاجة إلى المنطق، حيث لم تكن هذه الحاجة قائمة في عهد الصحابة

---

(١) طبقات الشافعية جـ٦ ص٢٥٣ وما بعدها، انظر: المدرسة السلفية وموقفها من علم المنطق وعلم الكلام للزميل الدكتور/ محمد عبد الستار نصار ص٢٩٣-٣٠٢ ففيها مناقشة موسعة لفتوى ابن الصلاح في تحريمه الاشتغال بالمنطق، وقد شارك ابن الصلاح في ذلك عدد من علماء المذاهب في المشرق والمغرب مثل أبي إسحاق المرغيناني، وابن عقيل، وابن الجوزي، والقشيري، والطرطوشي والمازري والنووي وأبي شامة، وابن تيمية.

والتابعين، لا إليه ولا إلى غيره من العلوم التى كانت حاصلة عندهم بأصل الفطرة والنشأة، وجهد فى تحصيلها من بعدهم، مثل أصول الفقه واللغة والنحو والتصريف وغيرها.

قال: ولا ينكر فضل الشيخ تقى الدين (ابن الصلاح) وفقهه وحديثه ودينه، وقصده الخير، ولكن لكل عمل رجال.

● **نقد ابن الجوزى:**

وممن انتقد الغزالى بقوة: الحافظ النقاد المؤرخ الفقيه أبو الفرج ابن الجوزى (ت٥٩٧) وذلك فى مواضع عدة من كتابه النقدى القيم (تلبيس إبليس)[١]، كما عرض لشىء من ذلك فى ترجمته للغزالى فى كتابه (المنتظم)[٢].

وذكر أنه ألف كتابًا خاصًا جمع فيه مآخذه على الإحياء سماه (إعلام الأحياء، بأغلاط الإحياء) لم يتح لى الاطلاع عليه، وأحسبه لم يطبع.

● **ومأخذه الأساسى على الإحياء أمران:**

الأول: أنه وضعه على مذهب الصوفية، وترك فيه قانون

---

(١) انظر على سبيل المثال الصفحات: ١٦٥، ١٧٦، ٢١٣، ٢١٧، ٣٠١، ٣٢٣، ٣٣٩، ٣٥٢، ٣٥٤، ٣٥٥، ٣٦١.

(٢) جـ٩ ص١٦٨ - ١٧٠.

الفقه، وعلل ذلك بأنه صحب الصوفية، فرأى حالتهم الغاية. ونظر فى كتبهم، وكلام القدماء منهم فاجتذبه ذلك بمرة عما يوجبه الفقه[١].

ومن قرأ (التلبيس) وجد فيه شيئًا كثيراً من ذلك، وهو يعجب كيف يصدر هذا من فقيه مثله! أو يقول: عزيز علىَّ أن يصدر هذا من فقيه!!

وأحيانًا يذكر ما ينقله الغزالى عن الحارث المحاسبى، ويعجب منهما على علمهما كيف يقولان ذلك؟!

ثم يقول: والحارث أعذر عندى من أبى حامد؛ لأنه كان أفقه[٢].

وذكر مرة ما حكاه أبو حامد من أحوال الصوفية، ومبالغاتهم فى الزهد والسلوك وهضم النفس وتربية المريدين، إلى حد معاقبة النفس بالوقوف على الرأس طول الليل أو رمى المال فى البحر - بدل التصدق به - خشية الرياء، ثم قال[٣]: «وإنى لأتعجب من أبى حامد كيف يأمر بهذه الأشياء التى تخالف الشريعة، وكيف يحل القيام على الرأس طوال الليل؟

---

(١) المصدر السابق ص١٦٩.

(٢) انظر: تلبيس إبليس ص١٧٦.

(٣) نفسه ص٣٥٢، ٣٥٣.

وكيف يحل رمى المال فى البحر، وقد نهى رسول الله ﷺ عن إضاعة المال؟ إلى أن قال: فما أرخص ما باع أبو حامد الغزالى الفقه بالتصوف!!

والمأخذ الثانى: أنه ذكر فى (الإحياء) من الأحاديث الموضوعة وما لا يصح غير قليل، قال: وسبب ذلك قلة معرفته بالنقل، فليته عرض تلك الأحاديث على من يعرف، وإنما نقل حاطب ليل[1].

والعجيب أن ابن الجوزى نفسه لم يسلم مما عاب به الغزالى وأخاه أحمد الواعظ، فحشا كتبه الوعظية بما لا يصح ولا يثبت، مثل كتابه (ذم الهوى)، وغلبت فيه طبيعة الواعظ، على طبيعة الناقد الحافظ، صاحب كتب (الموضوعات)، و(العلل المتناهية) وغيرها!

ومن قبل لاحظ ذلك العلامة المؤرخ (ابن الأثير) وسجله على ابن الجوزى[2] والمعصوم من عصمه الله.

---

(١) المنتظم لابن الجوزى جـ٩ ص١٦٩.

(٢) عند حديثه عن أحمد الغزالى الواعظ - شقيق الإمام أبى حامد - وانتقاد ابن الجوزى له بروايته الأحاديث التى لم تصح فى وعظه، قال: والعجب أنه يقدح فيه بهذا وتصانيفه هو ووعظه محشو به، مملوء منه! (الكامل جـ١٠ / ٦٤٠ ط بيروت).

● **نقد ابن تيمية :**

ومن الذين انتقدوا الغزالى بشدة من المتقدمين شيخ الإسلام ابن تيمية (ت ٧٢٨) الذى تميز عن الغزالى بتبحره فى علم الحديث وفقهه رواية ودراية، حتى قيل : كل حديث لا يعرفه ابن تيمية فليس بحديث . فجمع بين المنقول والمعقول، وبين آثار السلف وعلوم الخلف، مع يقين لا يتزعزع بوجوب (الاتباع) الصارم، لما كان عليه الصحابة ومن تبعهم من خير القرون .

تعقب ابن تيمية أبا حامد الغزالى فى (الرسالة السبعينية) معلقًا على بعض ما ذكره الغزالى فى بعض كتبه، مثل (معيار العلم) و(فيصل التفرقة) و(جواهر القرآن) من أقوال وتأويلات، رآها مخالفة لمنهج السلف، وأنها من جنس كلام الفلاسفة والقرامطة الذين طالما أنكر عليهم، ومما قاله هنا : « وصاحب (الجواهر) - لكثرة نظره فى كلامهم، واستمداده منهم - مزج فى كلامه كثيراً من كلامهم، وإن كان قد يكفرهم بكثير مما قد يوافقهم عليه فى موضع آخر! »[1] وهو يحذر من الاغترار بكلام الغزالى هنا خاصة، لما له من الحرمة والمنزلة عند المسلمين .

---

(١) الرسالة السبعينية ص٤٢ ضمن الفتاوى الكبرى - ط . فرج الله الكبردى جـ وانظر ص١٠٧ أيضاً .

وفى (الفتاوى الكبرى) يتحدث عن (الإحياء) وأن فيه فوائد كثيرة، لكن فيه مواد فاسدة من كلام الفلاسفة تتعلق بالتوحيد والنبوة والمعاد، والخطر فى خلطها بمعارف الصوفية، فتكون بمنزلة من أخذ عدوا للمسلمين، فألبسه ثياب المسلمين! وقد أنكر أئمة المسلمين على أبى حامد هذا فى كتبه وقالوا: أمرضه (الشفاء)! يعنون (شفاء) ابن سينا فى الفلسفة.. وفيه أحاديث وآثار ضعيفة، بل موضوعة كثيرة.

وفيه أشياء من أغاليط الصوفية وترهاتهم.

ويعترف ابن تيمية منصفًا بأن فى (الإحياء) – مع ذلك – من كلام المشايخ الصوفية العارفين المستقيمين فى أعمال القلوب، الموافق للكتاب والسنة، ومن غير ذلك من العبادات والأدب – مما هو موافق للكتاب والسنة – ما هو أكثر مما يرد منه، فلهذا اختلف فيه اجتهاد الناس وتنازعوا فيه[1].

كما رد عليه فى (الفتاوى) فى قوله: إن تعلم المنطق فرض كفاية. واعتبر هذا غلطًا عظيمًا عقلاً وشرعًا، وذكر أن بعض المنطق حق، وبعضه باطل، وأن أكثر ما فيه من حق لا يحتاج إليه، والقدر الذى يحتاج إليه منه تستقل به الفطر

---

(١) الفتاوى الكبرى جـ٢ ص١٩٤.

السليمة، وأكد أنه علم لا ينتفع به البليد، ولا يحتاج إليه الذكى، [1] وفصل ذلك فى رده على المنطقيين.

وفى كتابه (نقض المنطق) نراه يحاسب الغزالى على أساس توثيق الكتب المشكوك فى نسبتها إليه مثل (المضنون) و(المشكاة) و(المعارج) ونحوها، لتشابه كلامه فيها مع الكتب الأخرى الثابتة النسبة إليه. وهذا وحده لا يكفى لإثبات نسب هذه الكتب من الغزالى عند الإنصاف.

● **تعقيب وتقويم:**

لا نزاع فى أن هؤلاء الذين نقدوا الإمام الغزالى أئمة كبار أيضًا، ولا ريب أنهم فيما أخذوه على الغزالى لم يكونوا أصحاب هوى ولا غرض دنيوى، ولكن كثيرًا من مآخذهم على أبى حامد، راجع إلى اختلاف المشارب والأمزجة والثقافات، كما أشار إلى ذلك الإمام تقى الدين السبكى، وابنه التاج السبكى فيما ذكرناه من قبل.

ومما ينبغى أن نسجله هنا: أن الذين انتقدوا الغزالى لم يغمطوا حقه فيما أحسن فيه، بل كلهم أشاد بعلمه ونبوغه وفضله.

فالطرطوشى يقول عنه: رأيت الرجل، وكلمته، فرأيته

---

(١) نفسه ص١٩٥.

رجلاً من أهل العلم، قد نهضت به فضائله، واجتمع فيه العقل والفهم، وممارسة العلوم طول زمانه[1].

وابن الجوزى يقول: صنَّف الكتب الحسان، فى الأصول والفروع، التى انفرد بحسن وضعها وترتيبها وتحقيق الكلام فيها[2]، ومع انتقاده لكتاب (الإحياء) نراه عمل على اختصاره وتلخيصه فى مهذب منه سماه (منهاج القاصدين).

وابن تيمية رغم نقده للإحياء يقول: إن فيه من المواد النافعة أكثر مما يرد منه.

ومع هذا لم يسعهم أن يسكتوا عما يرونه خطأ أو باطلاً من كلام الغزالى، نصحًا لله ولرسوله وللمؤمنين، فلم يكن بينهم وبين الغزالى محاسدة أو منافسة، ولكن ليس فى العلم كبير، وكل أحد - دون رسول الله ﷺ يؤخذ منه ويرد عليه.

● **الغزالى والتصوف:**

ومما لا ريب فيه أن أبرز ما أخذ على الغزالى: اندماجه فى طريق الصوفية اندماجًا يكاد يكون كاملا، وإذعانه لما عند القوم من معارف وأحوال، دون أن يحاكمها إلى منطق الفقه وأصوله.

---

(١) طبقات الشافعية جـ٦ ص٢٤٣. (٢) المنتظم جـ٩ ص١٦٨.

فقد ذكر في (المنقذ) أنه - بعد أن سبر ما عند الفلاسفة والمتكلمين والباطنية ولم يجد فيها ما يهبه اليقين، ويهديه إلى الحقيقة التي ينشدها - انتهى به المطاف إلى طريق الصوفية. فعلم يقينا - كما يقول هو - أنهم (هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة، وأن سيرتهم أحسن السير، وطريقهم أصوب الطرق، وأخلاقهم أزكى الأخلاق، بل لو جمع عقل العقلاء، وحكم الحكماء، الواقفين على أسرار الشرع من العلماء، ليغيروا شيئًا من سيرهم وأخلاقهم، ويبدلوه بما هو خير منه، لم يجدوا إلى ذلك سبيلاً.. وأن جميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهرهم وباطنهم، مقتبسة من نور النبوة، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به.

(وبالجملة: فماذا يقول القائلون في طريقة طهارتها - وهي أول شروطها - تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى.. ومفتاحها - الجاري منها مجرى (التحريم) من الصلاة - استغراق القلب بالكلية بذكر الله.. وآخرها: الفناء بالكلية في الله؟!). وهذا الآخر بالإضافة إلى ما يدخل تحت الاختبار والكسب ولكن الترقي مستمر حتى ينتهي إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق، ولا يحاول معبر أن يعبر عنها إلا اشتمل لفظه على خطأ صريح، لا يمكن الاحتراز عنه،

قال: وعلى الجملة: ينتهى الأمر إلى قرب يكاد يتخيل منه طائفة (الحلول) وطائفة (الاتحاد) وطائفة (الوصول) وكل ذلك خطأ.. بل الذى لابسته تلك الحالة، لا ينبغى أن يزيد على أن يقول:

وكان ما كان مما لست أذكره

فظن خيرا ولا تسأل عن الخبر[1]!

هكذا كان دخول الغزالى إلى التصوف دخول المحب العاشق، لا دخول الفاحص الناقد، فلم ينظر إلى علوم الصوفية وتراثهم بعين النقد التى نظر بها إلى علوم الفلاسفة والمتكلمين والباطنية، بل بعين الرضا والحب، والحب يعمى ويصم.

وعين الرضا عند كل عيب كليلة

كما أن عين السخط تبدى المساويا!

وإذا الحبيب أتى بذنب واحد

جاءت محاسنه بألف شفيع!

وسر هذا أنه تعامل مع التصوف بقلبه قبل عقله، وبذوقه قبل فقهه، وهذا ما جعله يقبل أشياء مما أخذ على

---

(١) المنقذ من الضلال ص١٤٥.

القوم فى الفكر، وفى السلوك، دون أن يعرضها على قانون الفقه، أو منطق العقل.

ومن أجل هذا أنكر عليه العلامة ابن الجوزى وغيره من الناقدين قبوله لكثير من أفكار الصوفية وأعمالهم وأحوالهم، وهى مخالفة لقانون الشرع، منحرفة عن الكتاب والسنة الصحيحة.

وربما اعتذر أبو حامد فى بعض الأحيان عن تجاوزات بعض القوم باعتذارات لا يقبلها منها الفقهاء، كقوله بعد حكاية الصوفى الذى عرفه الناس بالإصلاح فى مَحلة، فخاف على نفسه الفتنة، فدخل الحمام، وسرق بعض الثياب الفاخرة، ولبسها وخرج.. فلحقه الناس وأخذوا منه الثياب وصفعوه.. وصار يعرف بعد ذلك بـ(لص الحمام)؟ فسر بذلك وسكنت نفسه!

قال أبو حامد: «فهكذا كانوا يروضون أنفسهم، حتى يخلصهم الله من النظر إلى الخلق، ثم من النظر إلى النفس، وأرباب الأحوال ربما عالجوا أنفسهم بما لا يفتى به الفقيه، مهما رأوا صلاح قلوبهم، ثم يتداركون ما فرط منهم من صورة التقصير»[1].

---

(١) تلبيس إبليس ص٣٥٤، ٣٥٥، وانظر الإحياء جـ٣ ص٢٨٨، ط بيروت.

وابن الجوزى شدد النكير على أبى حامد فى حكاية هذا أمثاله، واستحسانه وتبريره[1].

ومع هذا لا ينكر منصف دارس للغزالى ولكتبه، ولإحيائه خاصة أنه لم يقبل التصوف بعجره وبجره، بل رفض فى حزم تصوف أهل الحلول والاتحاد كالحلاج وأشباهه، ولم يقبل إلا (التصوف السنى) القائم على الكتاب والسنة، واجتهد أن يرد كل فكرة أو خلق أو سلوك، أو حال، مما يقول به المتصوفة، إلى أصول إسلامية، وأن يستدل عليها بالقرآن والحديث والأثر.

كما حاول أن يخفف من غلواء القوم فى فهمهم للتوكل والزهد ونحوهما وإن أصابه شىء من رذاذهم.

ومما يذكر له أنه نبّه على ضرورة (العلم) الشرعى. لسالك طريق الآخرة، خلافًا لما كان شائعًا بين كثير من

---

(١) يقول ابن الجوزى هنا: كيف يجوز أن يطلب صلاح القلوب بفعل المعاصى؟ أو قد عدم فى الشريعة ما يصلح من قلبه حتى يستعمل ما لا يحل فيها؟ وهذا من جنس ما تفعله الأمراء الجهلة من قطع من لا يجب قطعه، وقتل من لا يجوز قتله ويسمونه (سياسة)، ومضمون ذلك أن الشريعة ما تفى بالسياسة! وكيف يجوز للمسلم أن يعرض نفسه لأن يقال عنه: سارق! وهل يجوز أن يقصد وهن دينه عند شهداء الله فى الأرض؟؟ إلخ.. انظر: تلبيس إبليس ص٣٥٥.

الصوفية، أن العلم حجاب! وقد جعل أول كتاب من كتب (الإحياء) الأربعين (كتاب العلم) وأول عقبة يجب أن يجتازها (العابد) هى (العلم) كما فى (منهاج العابدين)، وأكد فى مواضع لا تحصر: أن السعادة لا تنال إلا بالعلم والعمل.

وقال فى رسالة (أيها الولد): إن العلم بدون عمل جنون، والعمل بغير علم لا يكون!.

يضاف إلى هذا رفضه للتأويلات الباطنية التى تخرج بالنصوص الشرعية عن مقتضى ظواهرها (بغير اعتصام فيه بنقل عن صاحب الشرع، ومن غير ضرورة تدعو إليه من دليل العقل) فإن هذا يقتضى بطلان الثقة بالألفاظ وتسقط من منفعة كلام الله وكلام رسوله ﷺ، فإن ما يسبق إلى الفهم لا يوثق به، والباطن لا ضبط له! ومثل لذلك يقول بعضهم فى قوله تعالى: ﴿ **اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ** ﴾: أى إشارة إلى قلبه! وقوله: ﴿ **أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ** ﴾ أى ما يتوكأ عليه ويعتمده مما سوى الله فينبغى أن يلقيه! ومثله حديث «تسحروا فإن فى السحور بركة» وتأويله بأنه الاستغفار فى الأسحار!! وبهذا الطريق توصل الباطنية إلى هدم جميع الشريعة بتأويل ظواهرها[1].

---

(١) الإحياء جـ١ ص٢٧ كتاب (العلم)، وأكده فى كتاب (آداب=

ومما يدل على إنصافه وتدقيقه ما ذكره فى كتاب (ذم الغرور) من (ربع المهلكات) من (الإحياء)، حيث لم يغفل عن التنبيه على (المغترين) من المتصوفة برغم دعواهم أنهم أهل الله وأصحاب البصائر، قال وهو يعد أصناف المغترين من الخلق: الصف الثالث: المتصوفة، وما أغلب الغرور عليهم! وهم فرق كثيرة ثم ذكرهم وكشف الستار عن غرورهم فرقة فرقة[1].

ومن أهم ما أبرزه الغزالى فى التصوف: أنه نقله من مجرد الذوق والتحليق والشطح والتهويل، إلى (علم أخلاقى عملى) يعالج أمراض القلوب وآفات النفوس ويزكيها بمكارم الأخلاق.

ومن نظر إلى (الإحياء) عرف أن لبابه وغايته فى نصفه الأخير. وهو يتكون من ربعين: ربع (المهلكات) وربع

=تلاوة القرآن) ص٢٩، ومما يؤسف له أن الغزالى الذى أنكر هذا النوع من التأويل المسرف، مال إلى شىء مثله فى تأويل الكوكب والقمر والشمس فى قصة إبراهيم بأنها حجب من نور، بعضها أكبر من بعض! وليس المعنى بها هذه الأجسام المضيئة إلخ.. ما قال فى كتاب (ذم الغرور) من (الإحياء) جـ٣ ص٤٠٦، ٤٠٧. وهو ما أنكره عليه ناقدوه كابن الجوزى وابن تيمية وهم محقون، ويؤيدهم منطق الغزالى نفسه.

(١) الإحياء جـ٣ ص٤٠٤-٤٠٦.

(المنجيات) وكل من هذه وتلك عشرة كاملة وكلها تدور حول (الأخلاق) .

فهو - كما ذكر في مقدمات الكتاب - يذكر في (المهلكات) كل خلق مذموم ورد القرآن بإماطته وتزكية النفس عنه، وتطهير القلب منه .

ويذكر في (المنجيات) كل خلق محمود، وخصلة مرغوب فيها، من خصال المقربين والصديقين التي بها يتقرب العبد من رب العالمين[1] .

كما أخذ عليهم من الناحية العلمية عدم دقتهم في تعريفاتهم لأعمال القلوب، لغلبة أحوالهم الذاتية والآنية عليهم، ولهذا نجده يعلق على قولين متناقضين ظاهراً في حقيقة التوبة بقوله :

وكلام المتصوفة أبدا يكون قاصراً، فإن عادة كل واحد منهم أن يخبر عن حال نفسه فقط، ولا يهمه حال غيره، فتختلف الأجوبة لاختلاف الأحوال، وهذا نقصان .

بالإضافة إلى الهمة والإرادة والجد، حيث يكون صاحبه مقصور النظر على حال نفسه، لا يهمه أمر غيره »[2] .

---

(١) من مقدمة (الإحياء) جـ١ ص٣ . (٢) الإحياء جـ٤ ص٤٢ .

ومن تتبع (الإحياء) وغيره من كتب الغزالى، بإنصاف، وجد أنه حاول كبح جماح القوم، والوقوف بهم عند الحدود والحواجز الشرعية، وضبط أقوالهم وأعمالهم، بتقييد مطلقها، وتحديد مبهمها، وإعطائها معنى مقبولاً، ونجح فى ذلك إلى حد بعيد.

ومن عرف كيف كان التصوف قبل الغزالى، ثم كيف صار بعده، عرف فضل الغزالى على التصوف وأهله، وما ترك فيه من أثر واضح، يشهد به المتخصصون فى علم هذا الجانب من جوانب الثقافة والحياة الإسلامية.

وهذا ما اعترف به وقرره الذين عنوا بدراسة التصوف ورجاله وتاريخه، من المسلمين، ومن المستشرقين أيضًا، وحسبنا أن نذكر هنا ما قاله واحد من أشهر هؤلاء المستشرقين وهو الأستاذ (نيكلسون) فى دراساته عن (التصوف الإسلامى وتاريخه) التى ترجمها الدكتور أبو العلا عفيفى يقول:

«كتب صوفى فارسى من رجال القرن الخامس الهجرى، ينعى على معاصريه تسميتهم شهواتهم «شرعا» وأوهامهم الكاذبة «علمًا إلهيًا» ونزوات قلوبهم ورغبات نفوسهم «حبا

إلهيًا» وتسميتهم الزندقة «فقراً»، والشك «صفاء» وإنكار الدين «فناء النفس»، وإهمال شرع النبى «طريقا فى التصوف»[1].

وفى سنة ١٤٠٥[2] ميلادية ألف القشيرى رسالته المشهورة فى علم التصوف، يذكر أهل عصره من الصوفية بما كان عليه قدماؤهم من الورع والتقوى فى القول والعمل، وما آل إليه التصوف من بعدهم من زوال الورع، واشتداد الطمع، وضياع حرمة الشريعة من القلوب، ورفض التمييز بين الحلال والحرام، وطرح الاحتشام، والاستخفاف بالعبادات إلى غير ذلك[3].

«أما أن هذه الصيحة التى صاحها القشيرى لم تذهب سدى، فيرجع السر فيه إلى الغزالى، فإنه مزج التصوف بالقرآن والحديث مزجًا تامًا، واستخرج من المجموع مادة واحدة، وقد بقيت كتبه على الأيام لا لأنها من إملاء عقله وحده، بل لأنها كانت نتيجة لرغبة صادقة ملحة فى تحصيل حياة روحية مطمئنة، أى أن الغزالى حل مشكلته فى نفسه قبل أن يضع نتائجها فى كتبه».

---

(١) كشف المحجوب للهجويرى.

(٢) أى قبل ميلاد الغزالى بإحدى عشرة سنة، فقد ولد سنة ٤٣٩هـ أو ١٠٥٦م تقريبا.

(٣) القشيرى ص٢-٣.

وبعد كلام عن عزلة الغزالى، ورحلته من الشك إلى اليقين،واهتدائه إلى طريق الصوفية يقول مبيناً موقف الغزالى :

« أما الغزالى نفسه فقد تشبث دائماً بنقطتين جوهريتين لم تجرح من أجلهما عقيدته فى الإسلام: الأولى: تقديسه للشرع، والثانية: وجهة نظره فى الألوهية، فإنه أوصد الباب فى وجه مذهب وحدة الوجود بقوله، مع أهل السنة: إن لله تعالى ذات واحدة مخالفة للحوادث، وأنه بمقدار ما يتحقق فى النفس الإنسانية من صفات الكمال الإلهية، يكون استعدادها لمعرفة الله، وأن العبد عبد، والرب رب، ولن يصير أحدهما الآخر البتة، أما علمنا بالله فموقوف على إرادة الله تعالى، وهو يعرفنا بنفسه عن طريق ما يوحى به إلى الأنبياء والأولياء[1] الذين هم من خلقه. وبهذا المعنى الروحى العميق فهم الغزالى الألوهية، فقرب الله من قلوب الخلق، ولكنه قرب « الله » – لا – « الكل فى واحد »[2].

على أن من أخطر ما يؤخذ على الغزالى – بالنسبة إلى التصوف – هو قضية (الكشف) أو (المكاشفة) التى يحصل

---

(١) الأولياء لا يوحى إليهم، وإنما قد يلهمون، وإلهامهم لم تضمن له العصمة.

(٢) فى التصوف الإسلامى وتاريخه ص٨٣، ٨٤.

الصوفى على علومها وأنوارها بعد الرياضة والتصفية الروحية، وبعد الترقى فى مدارج السالكين ومنازل السائرين، وقد صرح الغزالى أن (علم المكاشفة) مما لا يجوز أن يودع فى الكتب.

وإذا جمح به الفكر أو القلم يومًا، فذكر شيئًا من الإشارات أو اللمحات مما يحوم حول هذا (الحمى المحرم)، فسرعان ما يتذكر ويقبض عنان القلم، حتى لا يبوح بما لا يجوز البوح به من أسرار ومكنونات (لا يحاول معبر أن يعبر عنها إلا اشتمل لفظه على خطأ صريح) كما قال.

وهذه المكاشفات وحديث الغزالى عنها قد جلبت عليه طعن الطاعنين كما رأينا من قبل كلام المازرى وغيره، ويبدو أن ذلك بدأ فى أوائل حياته رضى الله عنه.

ففى مطلع كتابه (منهاج العابدين) - وهو آخر كتاب صنفه ولم يستمله إلا خواص أصحابه، كما فى مقدمة الكتاب المطبوع - يذكر أنه ألف فى علم طريق الآخرة كتبًا، كإحياء علوم الدين و(القربة إلى الله) وغيرها، اشتملت على دقائق من العلوم، اعتاصت على أفهام العامة، فقدحوا فيها، وخاضوا فيما لم يحسنوه منها، وتمثل الغزالى هنا بما يعزى إلى الإمام على زين العابدين بن الحسين رضى الله عنهما من شعر يقول فيه:

إني لأكـــتم من علمي جـــواهره

كـيـلا يرى ذاك ذو جـهل فـيـفـتـتنا

وقـــد تـقـــدم في هذا أبو حـــسن

إلى الحـسين، ووصى قـبـله الحـسنا

يا رب جـــوهر علم لو أبوح به

لقـيل لي: أنت ممن يعـبـد الوثنا!

ولاسـتـحل رجـال مـسلمـون دمي

يرون أقـبح مـا يأتونـه حـسنا![1]

وقـد أورد التـاج السبكي اعـتـراض الإمام المازري على الإمام الغزالي في قوله: إن في علومه ما لا يسوغ أن يودع في كـتـاب، وقال: فليت شعـري: أحق هو أم باطل؟ فإن كـان باطلاً، فصدق، وإن كان حقًا - وهو مراده بلا شك - فلم لا يودع في الكتب؟ ألغموضه ودقته؟ فإن كان هو، فما المانع أن يفهمه عليه؟.

وقـد رد السـبكي على المازري بأن للعلوم دقـائق، نهى العلماء عن الإفصاح بها خشية على ضعفاء الخلق، وأمور أخر

---

(١) منهاج العابدين للغزالي ص٣ ط مصطفى الحلبي بمصر سنة ١٣٣٧هـ.

لا تحيط بها العبارات، ولا يعرفها إلا أهل الذوق، وأمور لم يأذن الله فى إظهارها لحكم تكثر عن الإحصاء.

قال: وماذا يقول المازرى فيما خرجه البخارى فى صحيحه من حديث أبى الطفيل: سمعت عليا رضى الله عنه يقول: حدثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يكذب الله ورسوله؟!

وكم من مسألة نص العلماء عن عدم الإفصاح بها، خشية على إفضاح من لا يفهمها.

وهذا إمامنا الشافعى رضى الله عنه، يقول: إن الأجير المشترك لا يضمن، قال الربيع: وكان لا يبوح به خوفًا من أجير السوء.

قال الربيع أيضًا: وكان الشافعى - رضى الله عنه - يذهب إلى أن القاضى يقضى بعلمه، وكان لا يبوح به مخافة قضاة السوء.

فقد لاح لك بهذا أنه ربما وقع السكوت عن بعض العلم، خشية من الوقوع فى محذور.. ومثل ذلك يكثر[1]. ا.هـ. كلام التاج السبكى.

---

(١) طبقات الشافعية جـ٦ ص٢٥١، ٢٥٢.

والحق أن هذا الرد أو الاعتذار من صاحب (الطبقات) لا يشفى الغليل، وكل ما ذكره من أمثلة لا تدل على أكثر من حجز بعض المسائل عن بعض العوام وأمثالهم إذا خيف عليهم أن يسيئوا فهمها، أو يستغلوها استغلالاً سيئًا، وأن يخاطب كل قوم بلسانهم، على قدر عقولهم.

وليس فيما ذكره ما يدل على إخفاء حقائق العلم عن العلماء أنفسهم، فلا يباح به إلا لمن كان المشرب والمذهب، ممن يؤتمن على السر ولا يفشيه!

والذى يبدو لى من كلام الغزالى، ومما ذكره من الشعر المنسوب إلى زين العابدين - وما أظنه صحيحًا عنه - ينبئ بأن ثمت أسراراً تناقض مقررات الشرع المعروفة، بحيث لو أفصح بها مفصح لحكم عليه بالردة واستبيح دمه، وهذا لا يكون إلا فيما يخالف المقطوع به فى الإسلام، أو ما يسميه العلماء - ومنهم الغزالى نفسه فى بعض كتبه - المعلوم من الدين بالضرورة.

والله تعالى قد أنزل كتابه للناس جميعًا ليعقلوه ولينذروا به وليعملوا بموجبه، كما قال تعالى: ﴿ **لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً** ﴾ [الفرقان: ١] ﴿ **هَذَا بَلاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا**

﴿ أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ [إبراهيم: ٥٢] ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف: ٢] ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر: ١٧].

وقد يتفاوت الناس فى فهم القرآن والاستنباط منه، ولكنه ميسر للذكر بالنسبة لهم جميعًا، ومن آتاه الله فهمًا أو تأويلاً – مثل على وابن عباس رضى الله عنهما – فمن واجبه أن يبين للناس ما فهمه، كل حسب طاقته[١].

● **الغزالى وإنكار البعث الجسمانى:**

وأخطر من هذا كله – مما أصاب الغزالى من الصوفية وربما من الفلسفة أيضًا – ما اتهمه به الفيلسوف الأندلسى ابن طفيل قديمًا، ورددده بعض أساتذة الفلسفة الإسلامية حديثًا: أنه كفر الفلاسفة الإسلاميين، لإنكارهم البعث الجسمانى، واعتقادهم أن البعث للنفوس خاصة، وأن كل اللذائذ والآلام فى الآخرة روحية محض. ثم يراه ينتحل هو هذا المذهب ويقره.

وتكفير الغزالى للفلاسفة بهذا – ضمن القضايا الثلاث

---

(١) ميزان العمل – تقديم وتحقيق د. سليمان دنيا ص١٨٢ وما بعدها ط دار المعارف بالقاهرة.

المعروفة – أمر ثابت عن الغزالى بيقين، وواضح لكل من قرأ كتابيه: (التهافت) و(المنقذ).

أما انتحاله للمذهب الذى أنكره ، فيبدو هذا فى أوائل كتابه (ميزان العمل)، حيث ذكر أن الناس فى أمر الآخرة أربع فرق:

فرقة: اعتقدت الحشر والنشر، والجنة والنار، كما نطق به الشارع، وأفصح عن وصفه القرآن، وأثبتوا اللذات الحسية التى ترجع إلى المنكوح والمطعوم، والمشموم، والملموس، والملبوس، والمنظور إليه.

واعترفوا بأنه ينضاف إلى ذلك أنواع من السرور، وأصناف من اللذات التى لا يحيط بها وصف الواصفين، فهى مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وأن ذلك يجرى أبداً بلا انقطاع، وأنه لا ينال إلا بالعلم والعمل.

وهؤلاء هم المسلمون كافة، بل المتبعون للأنبياء على الأكثر من اليهود والنصارى.

وفرقة ثانية: وهم بعض الإلهيين الإسلاميين من الفلاسفة اعترفوا بنوع من اللذة لا تخطر على قلب بشر كيفيتها، وسموها لذة عقلية.

وأما الحسيات فأنكروا وجودها من الخارج، ولكن أثبتوها على طريق التخيل فى حالة النوم، ولكن النوم يتكدر بالتنبه، وذلك لا تكدر له، بل هو على التأبيد.

وفرقة ثالثة: ذهبوا إلى إنكار اللذة الحسية جملة بطريق الحقيقة والخيال، وزعموا أن التخيل لا يحصل إلا بآلات جسمانية، والموت يقطع العلاقة بين النفس والبدن، والذى هو آلته فى التخيل وسائر الإحساسات، ولا يعود قط إلى تدبير البدن بعد أن أطرحه، فلا يبقى له إلا آلام ولذات ليست حسية، ولكنها أعظم من الحسية، فإن الإنسان فى هذا العالم أيضًا ميله إلى اللذات العقلية ونفرته عن الآلام العقلية أشد..

وإلى هذا ذهبت الصوفية، والإلهيون من الفلاسفة من عند آخرهم، حتى إن مشايخ الصوفية صرحوا ولم يتحاشوا، وقالوا: من يعبد الله لطلب الجنة، أو للحذر من النار، فهو لئيم.

وإنما مطلب القاصدين إلى الله، أمر أشرف من هذا، ومن رأى مشايخهم، وبحث عن معتقداتهم، وتصفح كتب المصنفين منهم، فهم هذا الاعتقاد من مجارى أحوالهم على القطع.

وفرقة رابعة: وهم جماهير من الحمقى لا يعرفون بأسمائهم ولا يعدون فى زمرة النظار، ذهبوا إلى أن الموت عدم محض، وأن الطاعة والمعصية لا عاقبة لهما، ويرجع الإنسان بعد موته إلى العدم كما كان قبل رجوعه[١].

أخذ ابن طفيل قديمًا، والدكتور سليمان دنيا[٢] حديثًا، من كلام الغزالى هنا أن الصوفية - باعتراف الغزالى - ينكرون البعث الجسمانى صراحة، وحيث إن الغزالى قد رضى طريقهم فهو مثلهم فى الاعتقاد!.

والذى أراه: أن فى كلام الغزالى هنا - عن موقف الصوفية من قضية البعث الجسمانى والجزاء المادى فى الآخرة - غموضًا وإجمالاً، ولا يستطيع المتأمل المنصف لكلامه، أن يقطع بأنه يصفهم بإنكار الجزاء المادى الأخروى جملة.

إنما الذى يفهم منه أنهم لا يعيرون اللذات والآلام المادية التفاتًا، ولا يعنيهم إلا لذات الروح، وآلام الروح، وأن الالتفات إلى النعيم الحسى، أو العذاب الحسى، من شأن العوام الذين لا يشغلهم إلا هذا الغلاف الطينى الذى اسمه (الجسم).

---

(١) انظر مقدمته لكتاب (ميزان العمل) ص١٦٢ وما بعدها.

(٢) انظر: الرسول والعلم - المقدمة ص٧ ط مؤسسة الرسالة.

ولهذا يعتبرون التطلع إلى هذه الماديات انحطاطًا أو لؤمًا، كما نقل الغزالى عنهم: من عبد الله طلبًا لجنته، أو خوفًا من ناره، فهو لئيم!.

فهم هنا لا يجحدون أن لله جنة يطلبها بعض الناس، ونارا يخافها بعض الناس، وهم فى نظرهم (اللؤماء) الذين لا يصنعون خيرًا إلا لجزاء مادى ينالونه!.

وهذا معروف مشهور عن الصوفية أنهم يقولون: لا تكن كعبد السوء، إن خاف عمل، ولا كأجير السوء؛ إن لم يعط أجرًا لم يعمل!.

وفى هذا ينقلون ما يذكر عن رابعة أو غيرها:

ليس لى فى الجنان والنار حظ

أنا لا أبتغى بحبى بديلا!

وقول الصوفية: إنما اللذة لذة الروح، وإنما العذاب عذاب النفس، من باب القصر الإضافى لا الحقيقى، كما نقول: إنما الإنسان عقل، أو: ما العلم إلا ما نفع، أو: إنما الفقيه من يخشى الله، أو إنما الميت من مات قلبه، وأمثال هذا لا يحصى.

وهذا هو الذى يقرأ فى كتبهم ويروى عنهم، فهم لا

يجحدون الأجزية المادية، ولكنهم يحتقرونها ويحتقرون من يجعلها أكبر همه، وغاية سعيه، ويبالغون فى ذلك إلى حد يكادون ينكرون عبادة الله رغبًا ورهبًا، وخوفًا وطمعًا.

وهذا يعتبر منهم خطأ وضلالاً؛ لأنه مناف لما فى القرآن الكريم، ولكنه ليس كفرًا يخرج صاحبه من الملة، وقد رد عليهم الإمام (ابن القيم) فى كتابه (مدارج السالكين) ونقلنا عنه ذلك فى كتابنا (العبادة فى الإسلام).

وكيف يدعى الغزالى على الصوفية أنهم ينكرون المعاد الجسمانى، والجزاء الجسمانى، وهو يذكر فى نفس الكتاب (ميزان العمل) ونفس السياق أن ذلك هو اعتقاد المسلمين كافة – بهذا التعميم – بل اعتقاد أتباع الأنبياء على الأكثر؟.

هل معنى هذا أنه يخرج الصوفية من زمرة المسلمين كافة؟ وبالتالى يخرج نفسه من المسلمين؛ لأنه رضى طريق الصوفية، واعتبرها أصوب الطرق؟ أم يا ترى هو يأخذ من الصوفية السيرة والأخلاق والسلوك، ولا يأخذ عنهم الاعتقاد وبخاصة أنه لم يقل: إن عقائدهم أصح العقائد، مع أن العمل ثمرة العقيدة، والسلوك ترجمة عما فى القلب من تصورات ومفاهيم؟.

إن هذه التساؤلات تدلنا على أن ما قد يفهم من ظاهر كلام الغزالى مردود: يرده السياق، ويرده المنطق، ويردّه صريح كلام الغزالى عن الفلاسفة وعن الصوفية فى كتبه الأخرى.

ولو افترضنا خلافًا بين كتب الغزالى، فإن المتأخر منها يحكم على المتقدم و(المنقذ) من أواخر ما ألف، وهو فيه مصر على تكفير الفلاسفة بقولهم فى المسائل الثلاث المعروفة.

أما القول بأن له مذهبين: أحدهما للجمهور، والثانى للخواص، وأنه يرى أن عقائد الفلاسفة ليست باطلة فى ذاتها، وإنما الباطل ذكرها للعوام، فهذا ما يرده الثابت الصريح المقطوع به من كلامه فى (التهافت) و(المنقذ) و(الإحياء) وغيرها. ومن ادعى غير ذلك فعليه الدليل ولا دليل.

أما إيمان الغزالى بالبعث الجسمانى، وبالآخرة وما فيها من نعيم حسى وروحى أعده الله للمؤمنين فى الجنة، وما فيها من عذاب مادى ومعنوى أعده الله للكافرين فى النار، فإن كتبه مملوءة به، فيما لا يحصى من المواضع والاستدلال عليه من مصنفاته من باب تحصيل الحاصل.

وليس يصح فى الأذهان شىء

إذا احتاج النهار إلى دليل!

● **الغزالى وعلم الحديث :**

ومن أهم ما أخذ على الغزالى تقصيره فى علم الحديث، وإن شئتنا الدقة قلنا : فى علوم الحديث، وقد رأينا ابن الجوزى يصفه بأنه فى الحديث (حاطب ليل) أى يأخذ كل ما وجده، دون تمحيص ولا انتقاء.

ويرجع هذا إلى أن المدرسة التى نشأ فيها الغزالى، وتكونت فى حلقاتها شخصيته العلمية – مدرسة إمام الحرمين خاصة – كان يغلب عليها الطابع العقلى الجدلى، وكان أهم ما يدرس فيها علوم الكلام والأصول والفقه والمنطق والجدل، ولم تكن لها عناية كافية بالحديث وعلومه، وقلما يسلم المرء من تأثير بيئته.

وقد عيب على شيخه إمام الحرمين بعض ما عيب عليه فى ذلك، ولكن الغزالى زاد على أستاذه فى هذا كثيراً، لأن الموضوعات التى عالجها – فى التصوف والسلوك – تتسع للضعيف من الحديث أكثر مما يتسع الفقه الذى يتعلق بالأحكام، وبيان الحلال والحرام، ومثل ذلك علم (الأصولين) : أصول الدين، وأصول الفقه، وهى التى اشتهر بها شيخه.

وقد ذكرت فى كتابى (الرسول والعلم) أن الغزالى ذكر

فى (كتاب العلم) من (الإحياء) نحو (٥٥) خمسة وخمسين حديثًا، منها (١٣) ثلاثة عشر فى مرتبة الصحيح أو الحسن والباقى ضعيف جداً، رغم اشتهاره على الألسنة والأقلام[١].

« ومن الإنصاف أن نبين أن الغزالى لم يكن هو وحده الذى سقط فى أحابيل الأحاديث الواهية والموضوعة، فقط سقط فى ذلك المتصوفة من قبله، وهو أخذ ما فى كتبهم وأبقاه فى كتبه، والمتصوفة معروفون بالتساهل فى ذلك؛ لأن مجالهم (الرقائق).

بل إن الفقهاء لم ينجوا من الوقوع فيما وقع فيه الصوفية، فكثيراً ما ذكروا فى كتبهم أحاديث معلقة غير مسندة ولا ثابتة، وهذا ما جعل ابن الجوزى يصف كتابه (التحقيق فى تخريج التعاليق) وهذبه ابن عبد الهادى فى كتابه (تنقيح التحقيق)، وصنف الحافظ الزيلعى كتابه (نصب الراية لأحاديث الهداية) وكم فيه من حديث يقول عنه: غريب، أى لا سند له ولا أصل، وهو اصطلاح خاص به.

وكتب التفسير حشيت بما لا يصح ولا يثبت من

---

(١) المستصفى جـ١ ص٢.

الحديث والإسرائيليات، بل إن كتب الحديث ذاتها – فيما عدا الصحاح – فيها الكثير من المردود لدى صيارفة الحديث.

حتى كتاب (ابن ماجة) وهو سادس (الكتب الستة) المشهورة، فيه أحاديث حكموا بوضعها!

وإنما يعرف ذلك ويميز الصحيح من السقيم، والمقبول من المردود، الخبراء الذين آتاهم الله المعرفة بالحديث روايته ودرايته، ولم يكن الغزالى منهم بحكم بيئته العلمية وما غلب عليها من ثقافة.

وهذه – فى نظرى – نقطة الضعف الأولى والخطيرة عند الغزالى، وكذلك عند كثير من الصوفية: أنه لم يتعمق فى العلوم المنقولة من التفسير الأثرى والحديث وآثار السلف، التى هى أساس العلوم الشرعية، وقد اعترف فى كتابه (قانون التأويل) بأن بضاعته فى علم الحديث مزجاة.

فهذا جعله يستدل بأحاديث ضعيفة أو لا أصل لها، أو موضوعة مختلقة، كما يغفل عن أحاديث صحيحة، أو متفق عليها، فى موضوعه، كان يجب أن يذكرها. وربما لو عرفها لغيرت من مسار تفكيره.

ويبدو مما كتبه فى مقدمة كتابه الشهير فى (الأصول)،

وهو (المستصفى) أنه كان يرى أن العلوم النقلية أمرها هين. فقد ذكر فى المقدمة: أن العلوم ثلاثة، منها: عقلى محض كالهندسة والحساب والنجوم. إلخ.. وهذه لا علاقة للشرع بها.

ونقلى محض، كالأحاديث والتفاسير، والخطب فى أمثالها يسير، ويستوى فى الاستقلال بها الصغير والكبير، لأن قوة الحفظ كافية فى النقل، وليس فيها مجال للعقل[١].

ونظرة الغزالى هنا يشوبها القصور، فهناك النقلة الذين يحفظون الحديث والتفسير – دون تمحيص ولا نقد – مثل الأرض التى تحفظ الماء ليستقى منها الآخرون وإن لم تنبت هى زرعًا ولا كلأ، كما فى حديث أبى موسى الأشعرى فى الصحيحين.

وهناك الذين يجمعون بين الرواية والدراية، وبين الحفظ والفقه، وبين النقل والنقد، مثل فقهاء الحديث الذين عرفوا تراثنا كثيراً منهم مثل مالك والشافعى وأحمد والطبرى والخطابى وغيرهم من المتقدمين، وفى المتأخرين مثل ابن دقيق العيد، وابن تيمية وابن القيم وابن كثير وابن حجر وغيرهم،

---

(١) طبقات الشافعية جـ٦ ص٢١٠.

على تفاوت بينهم، وهم الذين شبههم الحديث الصحيح بالأرض الطيبة التى ينزل عليها الماء فتقبله، وتنبت الكلأ والزرع الكثير.

وقد ذكر ابن تيمية أن الغزالى فى أواخره قطع بأن كلام الفلاسفة لا يفيد علمًا ولا يقينًا، بل وكذلك قطع فى كلام المتكلمين، قال:

«وآخر ما اشتغل به النظر فى صحيح البخارى ومسلم، ومات وهو مشتغل بذلك»[1].

وحكى ذلك عنه عبد الغافر الفارسى بعد أن ذكر عودته إلى بلده (طوس) واتخاذه بجوار بيته مدرسة لطلبة العلم وخانقاه (رباطا) للصوفية، وتوزيع أوقاته على التلاوة والذكر والتدريس ومجالسة أهل القلوب، بحيث لا تخلو لحظة من لحظاته ولحظات من معه عن فائدة، ثم قال:

«وكان خاتمة أمره إقباله على حديث المصطفى ﷺ ومجالسة أهله ومطالعة الصحيحين: البخارى ومسلم، اللذين هما حجة الإسلام»[2]، يعنى: بعد القرآن.

---

(١) مجموع الفتاوى الكبرى جـ٥ ص٤٢.

(٢) البداية والنهاية جـ١٢ ص١٧٤.

ولعله لو استقبل من أمره ما استدبر، لبدأ بطلب الحديث، والاعتصام بصحيح السنة وهدى النبوة. فإن خير الهدى هدى محمد ﷺ.

وقد كان بعض شيوخ الصوفية الأولين يقول لمريده: جعلك الله صاحب حديث صوفيًا ولا جعلك صوفيًا صاحب حديث!

يريد أن من طلب الحديث أولاً، وقف على أرض صلبة، وجعل الحديث أصلاً، وعرض عليه مواجيد التصوف وأحواله، ووزنها بميزان السنة الثابتة، وبهذا يحكم السنة فى التصوف، ولا يحكم التصوف فى السنة.

بخلاف من خاض فى التصوف أولاً، ثم طلب الحديث، فإنه غالبًا ما يحاول توجيه الحديث ليسند التصوف، وبهذا ينقلب الأصل فرعًا، والحاكم محكومًا.

وقد حاول كثيرون قديمًا وحديثًا أن يعتذروا عن استناد الغزالى إلى الأحاديث الضعيفة، وخاصة فى (الإحياء) بأن الكتاب فى الرقائق والترغيب والترهيب وفضائل الأعمال، والعلماء أجازوا رواية الضعيف فى هذا المجال.

وممن اعتذر بذلك للغزالى قديمًا الحافظ المفسر المؤرخ

ابن كثير، حين ترجم باختصار للغزالى فى (البداية والنهاية) فقال عن (الإحياء) :

« وهو كتاب عجيب، يشتمل على علوم كثيرة من الشرعيات، وممزوج بأشياء لطيفة من التصوف وأعمال القلوب، لكن فيه أحاديث كثيرة غرائب ومنكرات وموضوعات كما يوجد فى غيره من كتب الفروع التى يستدل بها على الحلال والحرام!، فالكتاب الموضوع للرقائق والترغيب والترهيب أسهل أمرًا من غيره »[1] .

وأود أن أشير هنا إلى جملة حقائق :

١ – أن الاستشهاد بالحديث الضعيف فى الرقائق والترغيب وفضائل الأعمال، ليس أمرًا متفقًا عليه، بل هناك من عارض فيه، كالبخارى ومسلم وابن العربى وابن حزم وغيرهم، ولكن جمهور العلماء أجازوه .

٢ – أن الذين أجازوا الاستشهاد بالضعيف فى المجال المذكور اشترطوا له شروطًا ثلاثة معروفة، منها ألا يكون شديد الضعف، وأن يندرج تحت أصل كلى ثابت بأدلة الشرع الأخرى، وألا يعتقد بثبوته، بل الاحتياط .

---

(١) فلسفة الأخلاق فى الإسلام ص٢١٩ - ٢٢٤ .

٣ – أنهم نبهوا على ألا تروى الأحاديث الضعيفة بصيغة الجزم: مثل: قال رسول الله ﷺ. بل بصيغة التمريض، مثل: روى عن رسول الله، وحكى عنه أو ذكر عنه، أو يقال: رواه فلان بسند ضعيف إلخ ....

٤ – أن (الإحياء) لم يلتزم بهذه الشروط، ولهذا نجد فيه الأحاديث الضعيفة جداً، والموضوعة، وما لا أصل له ولا سند، وهى للأسف مروية بصيغة الجزم.

ونظراً لمنزلة الغزالى عند المسلمين، ومنزلة كتاب (الإحياء) فقد انتشرت هذه الأحاديث الواهية والموضوعة بين جماهير المسلمين.

٥ – أن كثيراً من الأحاديث المذكورة فى (الإحياء) ليست لمجرد الترغيب والترهيب وترقيق القلوب، بل كثيراً ما يستدل بها على موقف الإسلام من بعض القضايا المهمة، كقضية الزهد، والنظرة إلى المال والغنى والفقر، والتوكل والأخذ بالأسباب، وأن للقرآن باطناً وظاهراً، وأن من العلم ما يجب أن يخفى عن الناس حتى عن العلماء.. ونحو ذلك.

٦ – أن بعض الأحاديث الضعيفة يترتب على قبولها اختلال النسب بين الأعمال، كما رتبها الشرع، فيعظم

ما حقه التصغير، أو يصغر ما حقه التعظيم، أو يقدم ما حقه التأخير، أو يؤخر ما حقه التقديم.

على أن مما ينبغي ذكره هنا أن الحافظ زين الدين العراقي، قد خدم الكتاب خدمة جليلة بتخريجه الموجز لأحاديثه المطبوع معه في حاشيته، والمسمى (المغني عن حمل الأسفار، بتخريج ما في الإحياء من الأحاديث والأخبار)، فيجب على كل قارئ للإحياء مراجعة تخريج العراقي، ليعرف منه درجة الحديث، وإن كان فيه ما يتعقب، ولكنه مهم ونافع على كل حال.

وكم أتمنى أن يختصر من الكتاب - أعني (الإحياء) - (منتقى) يبقى على روحه وحرارته، كما يبقى على فوائده العلمية والتربوية - وهي كثيرة وفيرة - ويحذف التجاوزات والمبالغات، والأحاديث الضعيفة - أو الشديدة الضعف على الأقل وبهذا نقدم للثقافة الإسلامية خدمة جليلة.

● **الناقدون للغزالي من المعاصرين:**

ليس عجيباً أن نجد من المعاصرين من ينقد الغزالي، وقد نقده من قبل أئمة سابقون.

والناقدون للغزالي ليسوا فئة واحدة، بل نراهم مدارس شتى وطرائق قددا.

فمنهم من ينقده، لأشعريته ومذهبه فى تأويل الصفات ونحوها، وما بقى فيه من رواسب التأثر بالفلسفة.

ومنهم من ينقده، لصوفيته، ومنهجه، فى نصرة التصوف وتبنّيه.

ومنهم من ينقده لدعوته إلى إهمال الحياة المادية، وتقدم المجتمع، استغراقًا فى طلب السعادة الشخصية. وهو أثر من آثار تصوفه.

ومنهم من ينقده، لاستفادته من أفكار الآخرين، دون أن ينسبها إليهم.

ومنهم من ينقده، لأنه رأى أفكاره يناقض بعضها بعضًا، وأنه يبنى فى كتاب ما يهدمه فى آخر.

ومنهم من ينقده، لسلبيته أمام الأحداث الكبار المهددة لحياة الأمة من حوله، إلى غير ذلك من الانتقادات التى نجد أكثرها – عند التأمل – ترجع إلى انتقادات السابقين نفسها، وإن لبست لبوس العصر.

هذا إلى انتقادات (العلمانيين) الذين يكرهون الغزالى، لأنهم يكرهون الدين نفسه، وسنحاول أن نذكر هنا أبرز المآخذ الأساسية التى عابها أهل عصرنا على الإمام الغزالى،

وسنقتصر منها على ما له طابع عام، دون ما له انتساب خاص إلى تيار معين، كالتيار المعادى للأشعرية أو الصوفية بوجه عام.

● **الغزالى والمصلحة العامة للمجتمع:**

مما عابه المعاصرون على الغزالى: إغفال المصلحة العامة للمجتمع المسلم، وللأمة الإسلامية، وفى هذا الشأن وجه أستاذنا الدكتور/ محمد يوسف موسى - رحمه الله - إلى الغزالى، نقداً عنيفاً فى كتابه (فلسفة الأخلاق فى الإسلام)، فنراه بعد أن فصل القول فى مذهبه الأخلاقى، والفلسفة التى يقوم عليها، والمصادر التى استقى منها، وبين رأيه فى الفضيلة والسعادة، والطريق إليها، وانتهائه إلى تفضيل حياة الزهد، والخمول والجوع وترك السعى، واعتبار ذلك المثل الأعلى - يقول:

«هل وضع فيلسوفنا - وهو يكتب مذهبه فى الأخلاق - الصالح العام للمسلمين كأمة لها حظ فى الحياة، ومكانة يجب أن تحافظ عليها، وغاية جليلة تعمل على الوصول إليها؟..».

وبعد أن يبين موقف الإسلام الذى يجمع بين الدنيا والآخرة، ويمزج بين الروح والمادة، وينكر تحريم زينة الله

والطيبات من الرزق، ويأمر بالمشى فى مناكب الأرض التى جعلها الله لنا ذلولاً، كما يأمرنا أن نعد لأعدائنا ما استطعنا من قوة.... فهو لا يغلق ملكوت السموات فى وجوه الأغنياء، كما فعل عيسى عليه السلام ولم يقل النبى ﷺ لأحد من أتباعه: بع مالك واتبعنى، كما قال المسيح عليه السلام بل قال لسعد: «إنك إن تذر ورثتك أ غنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس».

بعد هذا يعود الدكتور موسى إلى سؤاله الأصلى.

وقبل أن يجيب الدكتور يوسف موسى على تساؤله، يذكر رأى الغزالى فى الزهد والتوكل وأن من ملك لنفسه أكثر من قميص وسروال ومنديل، أو ابتغى لنفسه أكثر من حجرة، فقد خرج من صفوف الزاهدين!

وبعد أن حكى عن جوع السلف، ممن كان يطوى بطنه سبعة أيام، ومن يواصل إلى أربعين، وأن سهلا التُسْتَرى كان يفضل الصلاة قاعداً من الجوع، على الصلاة قائماً مع الشبع!

ثم ما ذكره عن التوكل، وأن أعلى مقاماته: مقام الخواص ونظرائه ممن كان يدور فى البوادى بغير زاد!

ثم يليه مقام من يلزم البيت أو المسجد، انتظاراً لما يبعثه الله من رزق!

بعد هذا يقول الدكتور رحمه الله:

« ونعتقد أنه واضح بعد هذا، أن الغزالى لم يكن – وهو يكتب فى مذهبه الأخلاقى – يعنيه الصالح العام، كما كان يعنيه الصالح الخاص للمتصوفين، وأن مذهبه ليس مذهبًا يقوم عليه الاجتماع، وتسعد به الأمة، فإنه جعل الغاية من الأخلاق « السعادة » وحددها وعين وسائلها بما يجعلها (السعادة الشخصية) لا العامة، فكان مذهبه بذلك (مذهبًا فرديًا) لا اجتماعيًا.

وقد كان حَرِيًا به – وهو من الذين وَصَلُوا لِفَهْم الدين وأسراره – أن يجعل من الدين، الذى أشرنا من قبل إلى بعض مزاياه ونظراته للحياة، عاملاً اجتماعيًا يأخذ منه مذهبًا للأخلاق الاجتماعية، يتميز بالنبل والصلاحية لبناء الأمم وسعادتها، كما فعل الشيخ محمد عبده فى (رسالة التوحيد)، لأن الإسلام جاء لسعادة المجتمع لا لسعادة فريق دون فريق.

إن هؤلاء المتصوفة ومن إليهم من الذين يسعون وراء سعادتهم الخاصة قوم أنانيون، بل قوم جمعوا إلى الأنانية صفة أخرى، أنهم طلوها بطلاء من الدين يخدع الجهال، فيحسبون أنهم صفوة خلق الله.

وإن أسعد أيام أمم الغرب التى تتقاتل فى سبيل استعمار الشرق، وخصوم الإسلام وأعدائه الذين يتربصون به الدوائر، لهو اليوم الذى يرون فيه المسلمين آخذين – لا قدر الله تعالى – بمذهب الغزالى، فيجعلون الغاية التى عَيَّنَ غَايتهم، والمنهاج الذى رسم منهاجهم، فيصيرون عدماً، أو كالعدم فى هذه الحياة التى لا ترحم الضعيف، والتى تذكرنا بقول الشاعر:

تعدو الذئاب على من لا كلاب له

وتتقى صولة المستأسد العادى

على أنه من الحق للغزالى أن أشير إلى دفاع الأستاذ الكبير يوسف كرم فى نقده عنه فى هذه المسألة، مسألة الغاية القصوى للإنسان، بأنه ما دامت آخرة الإنسان روحية، فالدنيا تعتبر عدماً أو كالعدم، والأمة الزاهدة هى الرابحة السعيدة، وأنه فى هذا الدفاع يتمنى لو وجدت أمة تجمع على التزام حدود الله، وتذهب فى سبيل الكمال، إلى حد إيثار العدالة على القوة، والإحسان على العدالة، فبهذا يكون أبناؤها ملائكة تمشى على الأرض، ويصلحون الأرض ومن عليها!.

وهناك دفاع آخر قدمه الأستاذ طه عبد الباقى سرور فى كتيبه عن (الغزالى)[1].

---

(١) ظهر فى سلسلة (اقرأ) التى تصدرها دار المعارف بالقاهرة.

إذ رأى أن الغزالى لا يدعو الناس جميعًا لمثل هذا الزهد، أو لمثل ذاك التوكل، إنما يدعو إليه فئة خاصة من الناس، يكونون فيهم كالشامة، يهونون عليهم أمر الدنيا وأعراضها وزخارفها، وإن لم يطلب من الجميع أن يسعوا سعيها، وإلا خربت الدنيا، وهى مزرعة الآخرة، ولله حكمة فى بقائها وعمارتها.

ونقل الأستاذ سرور من كلام الغزالى فى عدة مواطن من (الإحياء) ما يدل على هذه الفكرة، ومما يؤيد هذه الفكرة اعتبار الغزالى الحرف والصناعات والعلوم الدنيوية مثل الطب والحساب وكل ما به قوام الحياة من فروض الكفايات التى تأثم الأمة بالتفريط فيها.

ومهما يكن من دفاع هذا وذاك عن الإمام الغزالى، فالذى يوحى به مجموع كتب الغزالى الصوفية وما فيها من نزعة شديدة إلى الزهد وإن لم يكن بصورة مباشرة أن الإنسان المثالى عنده – وعند المتصوفة بشكل عام – ليس هو الإنسان الذى عرفه الصحابة – رضوان الله عليهم – مما فهموه من القرآن والسنة والسيرة، جامعًا بين الدنيا والآخرة، بين حظ نفسه وحق نفسه وحق ربه وبين ترقية روحه وخدمة مجتمعه، وبين التمتع بالطيبات والقيام بشكر الله تعالى، بين العبادة لله،

والضرب فى الأرض، والانتشار فيها، والمشى فى مناكبها ابتغاء فضل الله، يعمل لدنياه كأنما يعيش أبداً، ويعمل لآخرته كأنه يموت غداً.

فعلى قارئ الغزالى أن يستفيد مما لديه من شحنة روحية عالية، تلين بها القلوب القاسية، وتجعل الآخرة دائماً حاضرة، وهذا ما يحتاج إليه الناس فى عصر المادية الغالية، مع الحذر من المبالغات التى تبعد بالمسلم عن منهج الوسطية المستقيم».

● **الغزالى وانتهاب أفكار الآخرين:**

وعابوا عليه أنه يأخذ أفكار غيره من العلماء ولا ينسبها إليهم، أو على حد تعبير أستاذنا د. يوسف موسى[1]: ينتهبها!، ويحكيها كأنها أفكاره وآراؤه دون أن يعزوها إلى أصحابها.

هذا مع أنه رحمه الله عاب ذلك أشد العيب فى كتابه (الإحياء) واعتبره لوناً من (السرقة) المموهة بطلاء كاذب، وذلك فى كتاب (ذم الغرور) من ربع المهلكات، عند حديثه عن المغترين من فرق أهل العلم، فجعل منهم من «لعله يحكى من الكلام المزيف ما يريد تزييفه فيعزيه إلى قائله،

---

(١) فى كتابه (فلسفة الأخلاق فى الإسلام).

وما يستحسنه فلعله لا يعزيه إليه، ليظن أنه من كلامه، فينقله بعينه كالسارق له؟ أو يغيره أدنى تغيير، كالذى يسرق قميصاً فيتخذه قباء، حتى لا يعرف أنه مسروق!»[1].

وقد لمست بنفسى كثيراً من ذلك فى (الإحياء) حيث ينقل من (الذريعة إلى مكارم الشريعة) للإمام الراغب الأصفهانى كثيراً من الأفكار، ولا يعزوها إلى مصدرها ومثل ذلك من (قوت القلوب) لأبى طالب المكى، ومن (الرعاية) للحارث المحاسبى، الذى قال عنه العلامة الشيخ محمد زاهد الكوثرى: إن الغزالى تبطنه فى (إحيائه)[2]، وهذا أمر يلمسه كل من قرأ الكتابين وبخاصة ربع (المهلكات) من الإحياء، فهل كان ذلك غفلة منه، أم لأنه قرأ هذه الأفكار، وتمثلها ولم يعد يذكر من أصحابها، أم كان طابع العصر يسمح بذلك ولا يحاسب عليه، ويعتبر هذه الأفكار ملكا شائعاً؟

على أية حال، لقد كان الرجل فى هضمه للثقافات

---

(١) الإحياء جـ٣ ص٢٧٥.

(٢) نقله الشيخ عبد الفتاح أبو غده فى مقدمة تحقيقه لـ (رسالة المسترشدين) للمحاسبى، ولكن مما يذكر للغزالى أنه اعترف بأخذه عنه فى (المنقذ) وقال عنه فى الإحياء (جـ٣/ ٢٦٤): المحاسبى حبر الأمة فى علم المعاملة، وله السبق على جميع الباحثين عن عيوب النفس، وآفات الأعمال وأغوار العبادات.

والمعارف المتنوعة المصادر، المتعددة الألوان، أشبه بالنحلة التى تأكل - بإيحاء ربها - من كل الثمرات، وتتغذى من مختلف الأزهار، فى مختلف الزروع والأشجار، سالكة سبل ربها ذللا، ليخرج بعد ذلك من بطنها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس.

وكذلك كان الغزالى، إن كل ما قرأه وحصله فى مراحل عمره المختلفة، أصبح بمثابة اللبنات ومواد البناء، التى استخدمها فى تكوين البناء الفكرى المحكم الذى صممه وأقامه، بفكره ومعرفته.

● **الغزالى وتناقض الأفكار:**

وعابوا على الغزالى كذلك ما يبدو من اضطراب وتناقض فى أفكاره وتعارض فى آرائه، فهو ينفى فى كتاب ما يثبته فى آخر، ويحل فى موضع ويربط فى آخر.

وهذا فى الواقع ليس نقداً جديداً موجهاً إلى الغزالى، بل هذا مما عابه عليه القدماء، عابه بذلك ابن طفيل، وابن رشد، واين تيمية، وغيرهم.

يذكر ابن طفيل أنه كفر الفلاسفة فى (التهافت) لإنكارهم حشر الأجساد وإثباتهم الثواب والعقاب للنفوس

خاصة، ثم يقول فى كتاب (الميزان) : إن هذا الاعتقاد هو اعتقاد شيوخ الصوفية على القطع، ثم قال فى (المنقذ) إن اعتقاده هو اعتقاد الصوفية[1] .

وقد أدى هذا ببعض دارسى الغزالى إلى القول بأن له مذهبين :

مذهب للعوام، وهو ما ضمنه بعض كتبه مثل (التهافت) .

ومذهب للخواص، يتبع فيه الفلاسفة، كما فى (معارج القدس) وغيرها، ذهب إلى ذلك الدكتور سليمان دنيا فى كتابه (الحقيقة فى نظر الغزالى) .

وأنا أعيذ أبا حامد أن يكون ذا وجهين - وأن يكفر الفلاسفة فى الظاهر ويتبعهم فى الباطن .

ولو جاز ذلك منه فى أوائل حياته، أيام طلب الظهور والصيت، لم يجز أبداً بعد أن جعل الدنيا وأهلها وراء ظهره، وأقبل بكنه همته على الله سبحانه .

وقد بينت أن كلامه عن اعتقاد الصوفية فى الجزاء الأخروى، لا يفهم منه - على القطع - ما فهمه ابن طفيل .

---

(١) حى بن يقظان لابن طفيل ص٦٣، ط . دار المعارف .

وغاية ما يمكن قوله هنا: أن الرجل كان ذا نفس قلقة، وعقل ثائر، وكان فكره دائم الحركة، فكثر انتقاله من رأى إلى آخر: حتى ثبت على ما هو عليه.

وقد رأينا أن ما قاله عن الفلاسفة فى (التهافت) يؤكده ما قاله عنهم فى (المنقذ) وهو من أواخر مصنفاته، كما أكد ذلك فى (الإحياء) وفى (فيصل التفرقة).

ثم إن هناك كتبا تنسب إليه تتضمن آراء مناقضة لما قرره فى كتبه المشهورة وتلك الكتب لم يثبت صحة نسبتها إليه.

من ذلك كتاب (المضنون به على غير أهله) وقد أنكر العلامة ابن الصلاح نسبته إليه، وقال: معاذ الله أن يكون له، وبين سبب كونه مختلقًا موضوعًا عليه.

قال العلامة ابن السبكى: «والأمر كما قال: وقد اشتمل (المضنون) على التصريح بقدم العالم ونفى العلم القديم بالجزئيات، ونفى الصفات، وكل واحدة من هذه يكفر الغزالى قائلها، هو وأهل السنة أجمعون، فكيف يتصور أنه يقولها؟!»[1].

---

(١) طبقات الشافعية جـ٦ ص٢٥٧.

وكذلك قال الأسنوى فى (طبقاته) :

« وينسب إليه تصنيفان ليسا له - بل وضعا عليه، وهما : (السر المكتوم)، و(المضنون به على غير أهله) »[١] .

وقال ابن رشد : « لعله لم يؤلفه »[٢] .

ويبدو أن هناك كتبا درس فيها على الغزالى ما لم يقله، دسها فيها أصحاب الأهواء، وأتباع المذاهب المنحرفة، استغلالاً لاسم الغزالى وشهرته، ليروجوا عن طريق كتبه باطلهم، أو ليشوشوا به على الغزالى ويشنعوا عليه .

ويظهر أن هذا الدس بدأ فى حياة الغزالى كيدا له، كما حكى هو نفسه فى إحدى رسائله الفارسية، وذلك بعد رجوعه إلى التدريس بالنظامية، والتفاف الطلبة حوله، ومجيئهم إليه من كل صوب، وحسد الحاسدين له، وآفة العلماء الحسد، وخصوصاً من المتعاصرين، وبالأخص إذا اختلفت مذاهبهم ومشاربهم .

فلنستمع إليه يحدثنا عن ذلك فيقول :

« لما استجيبت الدعوة واستمر عمل التدريس ناشطًا، وأخذ طلبة العلم من أطراف العالم يفدون، هاج حسد

---

(١) نقله ابن العماد الحنبلى فى شذراته جـ٤ ص١١ .

(٢) عبده الشمالى دراسات فى الفلسفة الإسلامية ص٥١٣ .

الحساد، ولم يجدوا أى طعن مقبول، غير أنهم لبسوا الحق بالباطل، وغيروا كلمات من كتاب: (المنقذ من الضلال) وكتاب (مشكاة الأنوار)[1] وأدخلوا فيها كلمات كفر، وأرسلوا إلىّ حتى أكتب على ظهرهما (خط الإجازة)، ولكن الله سبحانه وتعالى قد ألهمنى بفضله وكرمه، حتى طالعت ووقفت على تلبيسهم، واطلع رئيس خراسان على هذه الحالة، وأمر بحبس ذلك المزور، وأخيراً نفاه عن نيسابور، فذهب إلى المعسكر عند ملك الإسلام، وأطال لسان الطعن، وقد عجز عنه، ثم أخذ تعليقًا صنفته فى أيام الصغر مكتوبًا على ظهره (المنخول من تعليق الأصول) وقد زاد عليه جماعة بحكم الحسد من قبل ثلاثين سنة بكلمات تطعن فى الإمام أبى حنيفة»[2].

---

(١) نشر هذا الكتاب الدكتور أبو العلا عفيفى، وأشار فى مقدمة نشره إلى صحة نسبة الكتاب إلى الغزالى، ولكن الدكتور محمد على أبو ريان يذكر: أن المقارنة النصية المباشرة بين (المشكاة) و(إحياء علوم الدين) فى المواضع المتناظرة، تكشف عن عدم صحة نسبة المشكاة للغزالى، بل إن الدراسة (الفيلولوجية) النقدية للمشكاة قد أثبتت هذا الرأى (انظر: تاريخ الفكر الفلسفى فى الإسلام، هامش ص٤٩٢ نشر دار المعرفة الجامعية الإسكندرية ١٩٨٣).

ولكن كلام الغزالى هنا يثبت صحة النسبة، فلعل الكتاب دست فيه - بعد الغزالى - مقاطع من غير كلامه!

(٢) فضائل الأنام من رسائل حجة الإسلام ص٤٥، نقلها من =

فلا يؤمن أن يكون بعض الكتب قد دس فيها – بعد وفاته – عبارات تلزم الرجل ما لم يلتزم، وبخاصة الكتب غير المشهورة، والله أعلم بحقيقة الحال!

● الغزالى والغزو الصليبى للشرق الإسلامى:

وعابوا على الغزالى كذلك أن عصره شهد كوارث ضخمة فى حياة الأمة الإسلامية، لم يشر الغزالى إليها، ولا أظهر اهتماماً بها، مثل غزوة أهل الكفر للمسلمين فى عقر دارهم، واحتلال الصليبيين لعدد من بلاد الإسلام لاسيما بيت المقدس، الذى دخلوه غازين، وأسالوا فيه الدماء أنهاراً، وقتلوا من أهله نحو ستين ألفاً، وتفكك الأمة أمام هذه الغارات الوحشية.

فما لنا لم نسمع صوت الغزالى هنا، وهو صاحب الكلمة المسموعة، والصيت المدوى، والبيان المؤثر، والحجة البالغة، ما له لا يتحدث عن الجهاد؟ وما له لا يحرك الجماهير كما فعل من بعده شيخ الإسلام ابن تيمية؟ ما سر هذه السلبية؟.

=الفارسية إلى العربية الدكتور/ نور الدين آل على – نقلاً عن الدراسة التى قدم بها الزميل الدكتورعلى محيى الدين القره داعى تحقيقه لكتاب (الوسيط) للغزالى جـ١ ص١٦٣.

والحق أن هذا موقف محير من أبى حامد – رضى الله عنه – ومثله لا يجهل ما يجب أن يقال، وما يجب أن يعمل فى زمن الإغارة على أهل الإسلام، وقد سجل حكم الجهاد فى مثل هذه الحالة، وأنه فرض عين فى كتبه الفقهية، فما له سكت هنا، هل غلب الغزالى الصوفى على الغزالى الفقيه؟

ربما يقال:

إن هذه الأحداث الكبار إنما برزت وتفاقمت فى العالم الإسلامى فى نفس الوقت الذى اتجه فيه الغزالى إلى حياة العزلة والتصوف سنة ٤٨٨هـ وهجر الدنيا بما فيها من صراع البقاء أو صراع الفناء، فكان محور تفكيره حينذاك إنقاذ نفسه من النار ونقلها من (المهلكات) إلى (المنجيات).

فقد غزا الصليبيون أنطاكية سنة ٤٩١هـ، ثم معرة النعمان فى الشهر الأخير من تلك السنة حتى قالوا: إنهم قتلوا فيها مائة ألف، ثم اجتاحوا البلاد كلها يقتلون ويدمرون، واقتحموا القدس سنة ٤٩٥هـ وذبحوا من ذبحوا مما يذكره التاريخ ولا ينساه، وكان الغزالى لا يزال فى عزلته، إذ لم يفارقها إلا فى سنة ٤٩٩هـ.

ولكنه بعد ترك العزلة والعودة إلى حياة الإفادة،

والتدريس والدعوة، لم يبد منه ما يدل على عنايته بهذا الأمر، الذى يتعلق بمصير الأمة، وسيادتها فى أرضها، مما جعل بعض الباحثين يقول: إن الصوفية - والغزالى منهم - وقفوا من الغارات الصليبية موقفًا سلبيًا، لاعتقادهم أنها كانت عقابا إلهيًا للمسلمين على معاصيهم[1]!

ولعل عذر الإمام الجليل أن شغله الشاغل كان الإصلاح من الداخل أولاً، وأن الفساد الداخلى هو الذى يمهد للغزو الخارجى، كما تدل على ذلك أوائل سورة الإسراء فإن بنى إسرائيل كلما فسدوا وأفسدوا فى الأرض، سلط عليهم عدوهم، وكلما أحسنوا وأصلحوا ردت لهم الكرة عليهم.

لقد وجه أكبر همه إلى إصلاح الفرد، الذى هو نواة المجتمع، وإصلاح الفرد إنما يكون بإصلاح قلبه وفكره، وبذلك يصلح عمله وسلوكه، وتصلح حياته كلها، وهذا هو أساس التغيير الاجتماعى وهو ما أرشد إليه القرآن: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ**﴾ [الرعد: ١١].

ويدخل فى ذلك إصلاح الحكام بحسن توجيههم والنصيحة لهم، والله أعلم بحقيقة عذره.

---

(١) مقال د. عمر فروخ فى مهرجان الغزالى، نقلا عن (مقارنة بين الغزالى وابن تيمية للدكتور محمد رشاد سالم، نشر دار القلم بالكويت).

● **الغزالى ومسئولية التخلف العلمى والحضارى للأمة:**

ولقد ذهب بعض المستشرقين، وتبعهم بعض المعاصرين من العرب إلى أن الغزالى يحمل وحده تبعة هدم الفلسفة، والتفكير العقلى الحر، وانتصار المدرسة التقليدية على المدرسة العقلية، بل حملوه - تبعًا لذلك - مسئولية انهيار صرح العلوم والحضارة الإسلامية برمتها!!

وآخر ما قرأته فى ذلك: كتاب صدر فى سلسلة (عالم المعرفة) بدولة الكويت الشقيقة عن (العرب وتحديات التكنولوچيا) وفيه يحمِّل المؤلف (أنطونيوس كرم) ومن نقل عنهم من المعاصرين الغزالى، والمدرسة التى يمثلها، نتيجة تخلف الأمة، وسقوط حضارتها!! وهذه لا ريب دعاوٍ عريضة لا يصعب الرد عليها لأى دارس للحضارة الإسلامية وتياراتها ومدارسها، وردنا على هذه الدعوى من وجوه:

١ - إن فلسفة يستطيع فرد واحد من الناس - مهما علا كعبه فى المقدرة العقلية والعلمية - أن يأتى على بنيانها من القواعد بكتاب يؤلفه أوكتب - لهى فلسفة جديرة أن تختفى من عالم الفكر، بل لا تستحق أن تسمى فلسفة.

إن الحقائق أعمق جذوراً فى الوجود من أن تقتلع بهذه

السهولة التى يتصورون أو يصورون، إنما الذى يقتلع وينهار بهذه السهولة هو الأباطيل التى قد تبدو فى صورة الحقائق، أو الأوهام التى تلبس ثوب اليقينيات، وهي من اليقين عارية، وصدق الله إذ يقول: ﴿ **فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ** ﴾ [الرعد : ١٧].

٢ – إن الفلسفة لم تمت تمامًا بحملة الغزالى عليها، بل خفت صوتها، وتقلص سلطانها، وفقدت ما كان لها من هيل وهيلمان، وهذا ما كان يريده الغزالى، ولكن هذا لم يمنع من ظهور فلاسفة كبار، وخصوصًا فى المغرب من أمثال ابن باجه وابن طفيل وابن رشد، وفى هذا يقول (دى بور) الهولندى:

« كثيرًا ما يقال: إن الغزالى قضى على الفلسفة فى الشرق ولم تقم لها بعده قائمة، ولكن هذا زعم خاطئ، لا يدل على علم بالتاريخ، ولا فهم لحقائق الأمور، فقد بلغ عدد أساتذة الفلسفة وطلابها بعد عصر الغزالى مئات بل ألوفًا »[١].

وحسبنا أن أشهر فلاسفة الإسلام على الإطلاق، وأكبر

---

(١) تاريخ الفلسفة فى الإسلام – ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريده ص٣٥٧، الطبعة الخامسة، دار النهضة العربية، بيروت.

شارح لأرسطو، والذى يعتبره عدد من مؤرخى الفكر قمة التفكير الإسلامى وهو أبو الوليد ابن رشد (ت ٥٩٥هـ) ظهر بعد الغزالى، بل كان موقف الغزالى أكبر حافز له على الإنتاج، والرد والشرح، كما أشار إلى ذلك الدكتور إبراهيم مدكور.

٣ - إن الغزالى لم يهاجم الفلسفة من حيث هى تفكير عقلى حر، يبحث عن حقائق الأشياء، مستقلاً لا مقلداً، وأصيلاً لا تابعاً، إنما هاجم الفلسفة التى انتسبت إلى الإسلام، وكتبت بلغة العرب، وهى لا تمثل الإسلام، ولا العرب فى حقيقتها، وما هى إلا مركب غير متجانس من الفلسفة المشائية الأرسطية مخلوطة بالأفلاطونية الحديثة، يراد إخضاع التعاليم الدينية الإسلامية لها وهى متناقضة فى نفسها، وغير مؤسسة على علم يقينى.

والذى صنعه الغزالى إنما هو نقض التبعية والعبودية الفكرية لهذه الفلسفة الغازية، ووضعها تحت مجهر النقد، وعلى مشرحة التحليل، فالإنصاف يقول: إن الغزالى قد أعاد إلى الإنسان المسلم الثقة بنفسه ليفكر برأسه لنفسه، بدل أن يفكر له أرسطو أو أفلوطين أو غيرهما.

والغزالى حين أظهر عجز الفلسفة، وتهافت الفلاسفة، لم يقم ذلك على أساس دينى، بل على أساس عقلى محض، فهو يقارع الدليل بالدليل، ويدحض الشبهة بالحجة، ويهدم

الظن باليقين، يقاوم المنطق بمنطق أقوى، لا تهوله العبارات الفخمة، ولا الأسماء الطنانة، فهو حارب الفلسفة بالفلسفة، وهو فى نقضه للفلسفة فيلسوف كبير، وإن لم يعتبر نفسه كذلك.

٤ – إن الغزالى لم يهاجم كل شعب الفلسفة (فقد استثنى الرياضيات والطبيعيات والخلقيات والسياسيات منها)، إنما هاجم الفلسفة الميتافيزيقية، أو بتعبير أستاذنا المرحوم الدكتور/ محمد البهى: (الجانب الإلهى) من الفكر الفلسفى وهو الجانب الذى يعجز العقل أن يقول فيه كلمة فاصلة، لأنه فوق قدرته، وفوقه اختصاصه، وكل ما يملكه العقل هنا قياس الشاهد على الغائب، أو المحدود على غير المحدود، أو المخلوق على الخالق، وهو قياس – بالمنطق العقلى نفسه – مرفوض، لأنه قياس مع الفارق، وأى فارق أكبر مما بين المخلوق والخالق؟!

وقد شارك الغزالى فى هذا كثير من كبار الفلسفة فى العصر الحديث، مثل (كانت) الذى شبه عبارات الفلسفة (الميتافيزيقية) بأنها (ورق نقد بدون ضمان)، كما نقل عنه الدكتور/ البهى فى كتابه القيم (الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى).

ومثل فيلسوف المدرسة الوضعية (أوجست كوفت) الذى يعتبره الغربيون (أبا علم الاجتماع) الذى يعتبر (الميتافيزيقية) مرحلة انتهت بظهور الاتجاه العلمى الوضعى التجريبى .

وقد رأينا مفكراً عربيًا معاصراً مثل د . زكى نجيب محمود، يشن حملة على التفكير التجريدى فيما وراء المادة، ويسميه (خرافة الميتافيزيقا) .

فليس الغزالى بدعا فى الأولين ولا الآخرين، إذا هو هاجم اللون من الفلسفة التى لا تنهض بانتشارها دنيا، ولا يستقيم عليها دين!

٥ – إن نقد الغزالى للفلسفة، وحملته عليها وانتصاره اللدين ولعقائد الإسلام، لا يعنى أنه أصبح خصمًا للعقل، أو أنه أدار ظهره للفكر الحر . فهذا إن دل على شىء فإنما يدل على سوء فهم لدين الإسلام ولموقف الغزالى .

فأما سوء فهمهم للإسلام، فلتوهمهم أن الدين – كل دين – لا يرحب بإعمال العقل، ويقيسون الإسلام فى ذلك على النصرانية التى شعارها : اعتقد وأنت أعمى! والتى تؤمن بالتعارض بين العقل والدين، حتى قال القديس الفيلسوف

(أوغسطين) : أومن بهذا لأنه محال! على حين ينكر الإسلام التقليد، ويدعو إلى النظر، ويعتبر التفكير عبادة والعلم فريضة، ويرفض اتباع الظنون والأهواء، ويقول لأصحاب العقائد المختلفة: ﴿ **قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ [البقرة: ١١١، النمل: ١٦٤]، ﴿ **قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ** ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

وأما سوء فهمهم للغزالى فإن الرجل لم يتنكر للعقل ولا للنظر، كيف وهو الذى أعلن أن الشك هو أول مراتب اليقين، وأن مطلوبه الذى يسعى وراءه هو العلم اليقينى، وقد حدده بأنه « الذى ينكشف فيه المعلوم انكشافًا لا يبقى معه ريب ولا يقارنه إمكان الغلط والوهم، ولا يتسع القلب لتقدير ذلك، بل الأمان من الخطأ ينبغى أن يكون مقارنًا لليقين، مقارنة لو تحدى بإظهار بطلانه من يقلب الحجر ذهبًا، والعصا ثعبانًا، لم يورث ذلك شكا وإنكاراً... إن كل علم مما لا أعلمه على هذا الوجه، ولا أتيقنه هذا النوع من اليقين، فهو علم لا ثقة به ولا أمان معه، وكل علم لا أمان معه فليس بعلم يقينى »[١].

---

(١) المنقذ من الضلال ص٨٧، ٨٨ بتقديم د. عبد الحليم محمود.

وقال فى أواخر (الميزان) : « من لم يشك لم ينظر، ومن لم ينظر لم يبصر، ومن لم يبصر بقى فى العمى والضلال »[1]!

كما ذكر فى غير موضع من كتبه أن العقل لا يغنى عن النقل، وقد يعبر عنه بالسمع أو الشرع، والنقل لا يعنى عن العقل. يقول فى كتابه (ميزان العمل) :

« ويرى أن العقل كالأس، والشرع كالبناء، ولن يغنى أس ما لم يكن بناء، ولن يثبت بناء ما لم يكن أس ».

ويقول فى كتابه (الاقتصاد فى الاعتقاد) :

« فالمعرض عن العقل مكتفيًا بأنوار القرآن، مثل المتعرض لنور الشمس مغمضًا الأجفان فلا فرق بينه وبين العميان، فالعقل مع الشرع نور على نور ».

ويقرر فى (الإحياء) ما ذكرناه من قبل أن لا غنى بالعقل عن السماع، ولا غنى بالسماع عن العقل، فالداعى إلي محض التقليد مع عزل العقل بالكلية جاهل، والمكتفى بمجرد العقل عن أنوار القرآن والسنة مغرور، فإياك أن تكون من أحد الفريقين، وكن جامعًا بين الأصلين، فإن العلوم العقلية

---

(١) الميزان ص٤٠٩ تحقيق د. سليمان دنيا.

كالأغذية، والعلوم الشرعية كالأدوية.. وظن من يظن أن العلوم العقلية مناقضة للعلوم الشرعية، وأن الجمع بينهما غير ممكن، هو ظن صادر عن عمى فى عين البصيرة، نعوذ بالله منه»[1].

٦ – إن الغزالى – وإن دعا إلى التصوف والزهد والتوكل – لم يدع إلى إهمال شئون الدنيا من زراعة وصناعة وطب وغيرها، بل نراه يعتبر ذلك من الفروض الكفائية على الأمة فى مجموعها، فإذا لم يتوفر فيها العدد الكافى لتلبية حاجاتها من تلك العلوم والصناعات فهى آثمة.

يقول فى كتاب (العلم) من (الإحياء) فى بيان (العلم الذى هو فرض كفاية):

«اعلم أن الفرض لا يتميز عن غيره إلا بذكر أقسام العلوم، والعلوم بالإضافة إلى الغرض الذى نحن بصدده تنقسم إلى شرعية وغير شرعية، وأعنى بالشرعية ما استفيد من الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه، ولا يرشد العقل إليه مثل الحساب، ولا التجربة مثل الطب ولا السماع مثل اللغة. فالعلوم التى ليست بشرعية تنقسم إلى ما هو محمود وإلى

---

(١) الإحياء جـ٣ ص١٧.

ما هو مذموم وإلى ما هو مباح، فالمحمود ما يرتبط به مصالح أمور الدنيا كالطب والحساب، وذلك ينقسم إلى ما هو فرض كفاية وإلى ما هو فضيلة وليس بفريضة، أما فرض الكفاية فهو كل علم لا يستغنى عنه فى قوام أمور الدنيا كالطب، إذ هو ضرورى فى حاجة بقاء الأبدان، وكالحساب، فإنه ضرورى فى المعاملات وقسمة الوصايا والمواريث وغيرهما، وهذه هى العلوم التى لو خلا البلد عمن يقوم بها حرج أهل البلد، وإذا قام بها واحد كفى وسقط الفرض عن الآخرين. فلا يتعجب من قولنا: إن الطب والحساب من فروض الكفايات، فإن أصول الصناعات أيضًا من فروض الكفايات، كالفلاحة والحياكة والسياسة، بل الحجامة والخياطة، فإنه لو خلا البلد من الحجام تسارع الهلاك إليهم وخرجوا بتعريضهم أنفسهم للهلاك، فإن الذى أنزل الداء أنزل الدواء، وأرشد إلى استعماله، وأعد الأسباب لتعاطيه، فلا يجوز التعرض للهلاك بإهماله»[1].

وقد رأيناه ينكر على المشتغلين بالفقه فى عصره إهمالهم لبعض فروض الكفايات التى لا تقوم مصالح الأمة إلا بها، مثل الطب، وقال: «فكم من بلدة ليس فيها طبيب إلا

---

(١) الإحياء جـ١ ص١٦.

من أهل الذمة، ولا يجوز قبول شهاداتهم فيما يتعلق بالأطباء من أحكام الفقه، ثم لا نرى أحداً يشتغل به، ويتهاترون على علم الفقه، لا سيما الخلافيات والجدليات، والبلد مشحون من الفقهاء ممن يشتغل بالفتوى والجواب عن الوقائع، فليت شعرى كيف يرخص فقهاء الدين فى الاشتغال بفرض كفاية قد قام به جماعة، وإهمال ما لا قائم به؟!»[1].

٧ – إن (تبسيط) القضايا الكبيرة المعقدة، التى تتكاثر أسبابها، وتتداخل عللها، وتتشابك أطرافها، ليس من العلمية ولا من الموضوعية فى شىء.

فقضية مثل أفول نجم الحضارة الإسلامية، وانحطاط الأمة الإسلامية وانسحابها من المقدمة إلى المؤخرة، وغلبة الجمود والتقليد على الإبداع والاجتهاد، مثل هذه القضية الضخمة المعقدة لا ترجع إلى سبب واحد، ولا إلى عصر واحد، بله أن ترجع إلى رجل واحد.

إن لهذا التخلف والانسحاب والجمود أسباباً عدة، منها السياسى، ومنها الاجتماعى، ومنها الأخلاقى، ومنها الثقافى.

وهذه الأسباب لم تنشأ دفعة واحدة، ولا فى وقت

---

(١) الإحياء جـ١ ص٢١.

واحد، بل إنها تسرى فى كيان الأمم كما يسرى الداء فى أجسام الأفراد، يبدأ صغيراً، ثم يكبر، ضعيفًا ثم يقوى، محدوداً ثم ينتشر، خفيًا ثم يظهر، ثم إن الجسم إذا أصابه مرض ولم يجد من يعالجه أخذت تضعف مقاومته، فتتسلل إليه الأدواء الأخرى، داء بعد آخر، حتى تحطمه فى النهاية، كذلك الأمم والحضارات.

ولو أردنا تعليلاً واحداً يجمع كل العلل فى علة واحدة لم نجد أفضل من قول العزيز الحكيم: ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ** ﴾ [الأنفال :٥٣].

لقد غيرت الأمة ما بأنفسها – من أفكار ومعتقدات وقيم وفضائل – فغيّر الله ما بها من نعمة وتقدم وانتصار وقوة، سنة الله فى خلقه ﴿ **فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً** ﴾ [فاطر: ٤٣].

كلمة أخيرة نقولها هنا للباكين على الفلسفة، والمتحاملين على الغزالى:

إن الفلسفة وحدها لا تحيى المجتمعات، ولا تنهض بالأمم، إنما الحياة والنهوض والتقدم الحقيقى بالإيمان والأخلاق والعلم،

وطريقها – بالنسبة لأمتنا – دعوة محمد ﷺ لا فلسفة أرسطو.

إن الفلسفة قد ازدهرت فى الأندلس بعد الغزالى، وظهر هناك أشهر الفلاسفة على الإطلاق: ابن رشد، ومع هذا لم تتقدم الأندلس، بل لم تبق! بل سقطت وسقطت معها الحضارة الإسلامية هناك، لأسباب كثيرة يعرفها دارسو التاريخ، والعالمون بسر تقدم الأمم وتخلفها، وعلة قيام الدول وسقوطها.

إن المسلمين لا يتقدمون إذا أصبحوا (أرسطيين) أو (فارابيين) أو (سينويين)، وإنما يتقدمون ويصلحون وينتصرون إذا أصبحوا (محمديين) (قرآنيين)، يوقنون من دينهم أن طلب العلم فريضة، وأن إتقان العمل عبادة، وأن عمارة الأرض جهاد، وأن الاتحاد على الخير قربة، وأن التعاون على البر والتقوى واجب، وأن إتقان ما استطاعوا من قوة جزء من الدين، وأن الحكمة ضالة المؤمن، أنى وجدها فهو أحق بها.

بهذا يتقدمون ويتفوقون وينتصرون.

هذا ما وجه إليه من مآخذ، وما عابه عليه الناقدون من

القدماء والمحدثين، مما قد يقبل بإطلاق، أو يرد بإطلاق، أو يقبل بعضه ويرد بعضه.

وحسبه أنه كان صادقًا مع الله، مخلصًا فى تحرى الحق، متجردًا لنصرة الدين.

نحسبه كذلك والله حسيبه، ولا نزكى على الله أحدًا «وإنما لكل امرىء ما نوى».

رحم الله الإمام أبا أحمد الغزالى، فقد كان عملاقًا من عمالقة الفكر، وإمامًا من أئمة الدين، ورائدًا من رواد البحث عن الحقيقة واليقين.

* * *

obeikandl.com